أزمة أخلاق

توقَّفتْ السيارةُ الفارهةُ على جانب الطريق تنعكسُ على سطحها المعدني اللامع وزجاجها العاكس أشعةُ الشمسِ المبهرة بتوهجٍ يطمس في الأعين المنبهرة أيَّ أثرٍ لراكبها المتواري داخلها، والذي لابد أن يكون في مظهرٍ لا يقلُّ إبهارًا عن سيارته!

انزاحَ زجاجُ نافذتها لأسفل قليلًا لتبرزَ منه يدٌ ينعكس من الساعةِ الذهبيةِ التي تتوسطها بريقٌ يخطفُ الأبصارَ... صورةٌ ليس فيها مراءٌ للثراءِ الفاحشِ... هو الباب المعتمد الذي تنفذُ منه الثقةُ والاحترامُ بغير استئذان إلى القلوبِ، والعقولِ!

أشاحَ بيده تلك إلى البائعِ الذي كان واقفًا يشيحُ هو الآخر بيديه الممسكة بمنشَّتِه الهائشةِ الذبابَ عن بضاعتِه المعروضةِ من الفاكهة متعددِّةِ الألوانِ، والأشكالِ، والأحجامِ... رفسَ البائعُ صبيًّا كان يلهو على الأرض أمامه بقدمه فانتفضَ واقفًا، وقد أخذته هيبةُ المشهد كما أخذتْ بمجامعِ قلبِ الأبِ البائعِ الكهلِ...

وإزاء نظرات الأب الحازمة وتصرفه المفاجئ كان الصبيُّ في لحظاتٍ في موجهة صاحب السيارة الذي لم يبدُ له منه سوى وجهه وذراعه الممتدة

بورقة مالية كبيرة، فالتقطها الصبيُّ على عجلٍ، وأشار على الفور لوالده بعدد الأقفاص التي يريدها الزبون مستعينًا بما جهرتْ به حنجرتُه الصغيرةُ بالنوعِ، والصنفِ، والكميةِ...

هرولَ البائعُ إليه بحملٍ ناءَ به فأقبل عليه الصبيُّ يعاونه حتى تمكَّنا بصعوبةٍ من تسويتها في حقيبة السيارة الخلفية التي فتحها صاحب السيارة أوتوماتيكيًّا دون أن ينزلَ منها...

كان الرجلُ على عجلةٍ من أمره، فأمهلهما بعض الوقت حتى يستكمل جولتَه الشرائيةَ، ثم يعود إليهما ليستردَّ باقي المبلغ الذي اشترى في مقابله بضاعتهما...

مرَّرَ الصبيُّ يدَهُ على صدرِه مطمئنًا على الورقة المالية الكبيرة التي دسَّ بها في جيب الصديري الذي يقع أسفل جلبابه، تبادل مع أبيه على إثرها نظرات مفهومة، في حين اختفت السيارة وسط الزحام...

أسرع البائع وابنه يحملان ما تسنَّى لهما جمعه من بضاعةٍ وأقفاصٍ على العربة الخشبية، وانطلقا بها يجرَّانها بسرعةٍ مكتفين برزقهم الذي انتزعاه من رجلٍ ثريٍّ لن يعجزه فقد ورقة مالية لديه منها الكثير!

توقَّعَ البائعان مطاردةً مثيرةً، وتداعت في ذهنيهما الاحتمالات المفزعة... رجلٌ غنيٌّ سيقلبُ السوقَ رأسًا على عقبٍ... سينقِّبُ عنهما في

كلِّ موضعٍ حتى يحضرهما مكبلين في الأغلال... لا شك أنَّ معارفَه كثيرٌ، وصلاتِه واسعةٌ... سيكثِّفُ الجميعُ جهودَهُم في سبيلِ إرضائِه والانتقامِ ممن خدعه!

على الرغم من ذلك كلِّه لم يتردَّد الرجلُ للحظةٍ فيما عزمَ عليه، ولم يكن الصبيُّ بأقلِّ حرصًا منه على الغنيمة...

وبعد جهدٍ، وتعبٍ، ومطاردةٍ من طرفٍ واحدٍ صار الرجلُ وابنُه في مأمنٍ... انفرجتْ أساريرُ البائعِ وهو يودِّعُ معاناته في مشوارِ رزقِه اليوميِّ بما يفوقُ ثمنَ بضاعتِه كلِّها...

انقبضتْ كفُّه وانبسطتْ في حركاتٍ متتابعة وهو يسدِّدُ نظراته إلى الابنِ ليعطيه الورقةَ الماليةَ التي دارت بسببها تلك الوقعة...

أسرعَ الابنُ لينفضَ عن عقله مخاوفه فما عساه أن يفعل إن سقطت الورقة المالية من جيبه أثناء فرارِهما، فتحسَّس موضعها من ثيابه واطمأن لها... لم يفلح الصبيُّ في بثِّ تلك الطمأنينة إلى الأبِ، وقد غابت بشؤمِ فعلتِه ثقتُه في كلِّ شيءٍ... تباطأَ الصبيُّ بعض الشيء فألهبه الكهلُ بنظرةٍ ناريَّةٍ... فانصاعَ إلى الأمرِ متثاقلًا، وكأنَّما يريدُ أن يحظى بأكبرِ قدرٍ من صحبتها...

أخرجها من جيبه ليضعها في كفِّ الكهلِ المتلهِّفِ العجولِ... تلفَّتَ البائعُ يمنةً ويسرةً، فلم يجد غيرَه وولدَه فاطمأنَ وسكنَ... أمسكَ بالورقة المالية... نشرها بين أصابع يديه... رفعها أمامه فيما بين عينيه وصفحة السماء المضيئة... لم يرتح للونها الباهت... شدَّ الورقةَ وأرخاها بين أصابعه المعروقة محدثةً صوتًا كالقرقعةِ الخفيفةِ... تلمَّسَ خامتَها التي بدت خفيفةً غير مشدودةٍ... تصاعدَ لديه الإحساسُ بالقلق...

بدا على وجهِه في عيني الصبيِّ ملامحَ الانزعاجِ... كذَّب الشيخُ المسنُّ حواسَه التي ربَّما تكون قد خانته، وقد تذكَّر مظاهرَ الثراءِ الواضحةَ على المشترى، والتعبَ الذي أخذَ منه ومن ولدِه من جراءِ المطاردة... لكن مخاوفَه تردَّدت بعنفٍ في صدره تردُّدَ أنفاسِه اللاهثةِ... عزمَ البائعُ على إنهاء حيرتِه فأسرعَ إلى أحدِ جيرانِه الباعةِ فعرضها عليه...

لم تكن صدمةُ السائل بأقلَّ من صدمةِ المسئول الذي ناله من المشتري المخادع مثل ما نال صاحبه... لم يكترث البائعُ الثاني بالورقة المالية فألقاها للبائع الأول وأكبَّ على كيسٍ من القماش كان يعلِّقه في رقبته فأخرج ما فيه من عملاتٍ كثيرةٍ حتى استقرتْ في يدِه ورقةٌ ماليةٌ مشابهةٌ للتي عُرضت عليه... صرخَ صرخةً ملتاعةً مكتومةً:

- ورقة مزوَّرة! يا دي المصيبة!

لم تكن خسارةُ البائعِ الأول وهي بضاعته التي أعطاها للمشتري بغير مقابلٍ بأقلِّ من خسارة البائع الثاني الذي لعب معه المزوِّرُ نفس اللعبة مستغلًا الطمع والرغبة...

أسرعَ الرجلان إلى الموضعِ الأول يبحثان عن النصَّاب الذي تبخَّر من المكان كالدخان، وقطعًا لن يعود إليه!

وقفَ البائعُ من جديد ينادي على بضاعته، وهو يتميَّزُ غيظًا، بينما كانت تتأرجحُ في عقل الصبي الأفكارُ بين نشوة المغامرة التي لم يعقل ما أسفرت عنها من نتيجةٍ، وبين الخوف الذي سيطر عليه من مطاردة صاحب السيارة، لكنَّ ثباتَ الأبِ في مكانه واستعراضه الموضعَ جيئةً وذهابًا بثَّهُ ثقةً وإحساسًا بالنصر... ولا يزالُ الأبُ يفتِّشُ بعينيه عنه، ولا يزالُ الصبيُّ يتطلَّعُ من جديد إلى صيدٍ مثل هذا الصيد!

*****